بسم الله الرحمن الرحيم

١٥ ـ سورة الحجر

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[١] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايميّ ، وهي مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ)

« الر » تقدم الكلام فى مثله « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغىّ . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمْر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ)

« رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ » . تبشير للنبىّ ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً)[1] وفيه تثبيت للنبىّ ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جىء بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب فى قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » أى بدنياهم وتفنيذ شهواتهم « وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أملَ استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيرًا فى المآل « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشرىّ : فيه تنبيه .

ثم بيّن تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدّر ليتأمّل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقدم الإنذار وتكرّره على سمعهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

« مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار . ثم أخبر تعالى عن عتوّهم فى كفرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ماوجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكما. أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ)

[٨] (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ)

« لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ » أى هلّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقولهم[١] : (لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا) . وقول فرعون[٢] : (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنّة الإلهية ، وهو العذاب « وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ » أى مؤخّرين . كقوله تعالى[٣] : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسلية وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ » أى من كل مَنْ بغى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبحر هداه يجرى ، وظلال حقّيته فى علومه تمتد على الآفاق ،

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١و٢٢] .

ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين[1] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ) وفى إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١١] (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلا « مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى فرقهم وطوائفهم. جمع (شيعة) وهى الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمحذوف . أى الأمم. أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف. « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[١٣] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ » أى الذكر المنزل « فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين . وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذّباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزمخشرىّ : كما لو أنزلتَ بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام . تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوّز فى ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [٦١ / الصف / ٨] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تكملة للتسلية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بيّن تعالى أنهم لايتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التى تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا » أى حيّرت أوحبست من الإبصار ، ومانراه شيء نتخايله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الانتصاف) : المراد ، والله أعلم ، يعنى من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها . كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علمٍ وفهمٍ[1] (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم مافهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم) الآية . أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب فى السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهارا .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّواْ) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هـذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا) وسحرنا محمد. وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم فى التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدد والإصرار ، لاغير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثنى عشر التى تنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج فى الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها. فإن النجوم هيا كل فخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّـٰهَا » أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّـٰظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها. أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته «وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ* إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ » أى اختلس « ٱلسَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَأَتْبَعَهُۥ » أى تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُّبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالًا ثوابت «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى فى (الدرر)[1]: أن العرب استعملته بهذا المعنى. كقول عمر ابن أبى ربيعة .

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مما تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ يُوزَنُ وَزْنَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

[٢١] (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة «وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ» أى من الأنعام والدواب وما أشبهها. قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحّدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبىّ) .
والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارىّ . وفيه :
(ينعت الناعتون) عوضاً عن (تشتهيه النفوس) .

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ »أى وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبّه اقتداره على كل شىء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدّة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنَزِّلُهُۥٓ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل بالماء . وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابته الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله المهايمىّ . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بِجَرْىِ مائها فيه أو تنميته ليثمر ويزهو . وجوّز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجىء بالمزن الممطرة، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ » أى بقادرين على إيجاده وإنزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة، كما مرّ . أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه ينابيع فى الأرض وجعله عذباً ورحم العباد بسقياه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقى : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فنائه . ومنه قوله[1] صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أقف على هذا الحديث .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ . أومن تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لايخفى علينا شىء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وفى تكرير قوله (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُۥ حَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة[٢] (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٧] (وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ » يعنى آدمَ « مِن صَلْصَـٰلٍ » أى طين يابس مصوّت « مِّنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصوَّر من (سنة الوجه) وهى صورته . أومصبوب، من (سنّ الماء) صبَّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان. كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيَّره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه « وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ » أى من قبل الإنسان .

« مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحرّ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ » أى عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ » أى تحية له وتعظيماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » .

يعنى : وقد خلقتنى من نار فأنا خير منه . كما صرح به فى آية غيرها . وفى تكرير قوله : (مِن صَلْصَٰلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كابحاً من جماح غوايته ، وشدة تمرده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من كل خير و كرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة . أو شيطان يرجم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون . أفاده أبو السعود .

«وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » أى الجزاء. وهو يوم القيامة «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ »وهو يوم البعث.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ » أى المعاصى « فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » أى حق نهجه ومراعاته لااعوجاج فيه . وهو أن لاسلطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » قال المهايمى : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، لغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ مَقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَامٍ » أى سالمين أومسلما عليكم « آمِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ

غِلٍّ » أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَٰنًا » حال من فاعل (ٱدْخُلُوهَا) أو الضمير فى (آمنين) «عَلَىٰ سُرُرٍ» أى مراتب عالية «مُّتَقَٰبِلِينَ» لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُّتَقَٰبِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً «وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ» أى لمن لم يتب من كفره. والجملة فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . « وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ » أى عن نبئه . والضيف كالزَّور ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشاف : عطف (وَنَبِّئْهُمْ) على (نَبِّئْ عِبَادِىٓ) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخطَ الله وانتقامَه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

[٥٥] (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ)

[٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

«قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ» أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » قال الزمخشرىّ : هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب. كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشرونى. أو أراد إنكم تبشروننى بما هو غير متصوَّر فى العادة . فبأى شىء تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة بشىء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شىء .

«قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ» أى الآيسين من ذلك. « قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ، ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجراها الله تعالى. والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[٥٨] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٥٩] (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٦٠] (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروع « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أى الباقين مع الكفرة ، لتهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازىّ من باب قول خواصّ الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو فى علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكىّ عن الملائكة . قال فى (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائه عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ » أى لاأعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايمىّ : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم . كما فصل فى سورة هود « قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرّون به ، ويكذّبونك « وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهَبْ بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ » أى كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه « وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ *قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهى عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرّض له . فأوعدوه وقالوا[1] : (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ) أفاده الزمخشرىّ .

« قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ » تقدم الكلام عليه فى سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبىّ ﷺ ، اعترض به تعباً من شدة غفلتهم وتكريما للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ » أى غفلتهم التى ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه ، النصيحة المبقية لهم ، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين فى وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة المحرّكة للأرض « عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا » قال المهايمىّ لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، لرجمهم على لواطهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق فى الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمَّرة « لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعدُ ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزمخشرىّ : وهو تنبيه لقريش، كقوله[1] (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لعبرة لهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن القيّم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا ـ أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعَمْرُكَ) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الربُّ عز وجل بحياته . وهذه مزية لاتعرف لغيره.

ولم يوفق الزمخشرىّ لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة.

فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال: وما أقسم الله تعالى بحياة نبيّ غيره . والعَمر والعُمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم. ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصافات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيّم : وإنمـا وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سُكْرَانِ : سُكْرُ هَوًى وسُكْرُ مُدَامَةٍ ومتى إفاقةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟

الثانى ـ قوله تعالى (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) . قال السيوطىّ فى (الإكليل): هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذىّ من حديث أبى سعيد مرفوعاً[1] : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانىّ فى كتاب (الذريعة) حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هى صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله[2] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله[3] (تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ) وقوله[4] (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فَرَسَ السبعُ الشاةَ) فكأنّ الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحى . وإياه عنى النبىّ ﷺ بقوله[5] (المؤمن

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبى سعيد الخدرىّ ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروّع والمحدَّث . وقال عليه الصلاة والسلام[١] (إن يكن فى هذه الأمة محدَّث ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى[٢] : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل[٣] : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام. ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام[٤] (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب .من تتبع الصحيح منها ، اطّلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومَن قوى فيه نورُ الروح المذكور فى قوله تعالى[٥] : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) كان ممن وصفه بقوله[٦] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهدا ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام[٧] فى المتلاعنين (إن أمرهما بيّن ، لولا حكم الله) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشىّ ، العدوىّ ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦/ الشعراء / ١٩٣و ١٩٤] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] .

(٦) [١١/هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارىّ عن ابن عباس فى: ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ٣١ ـ باب قول النبىّ ﷺ: لو كنت راجماً بغير بينة، حديث رقم ٢١٦٣.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ)

[٧٩] (فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٨١] (وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ » (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام. كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار، فظلموا بأنواع من الظلم، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه. «فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أى بعذاب الظلة ، وهى سحابة أظلتهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم « وَإِنَّهُمَا » يعنى قرى قوم لوط والأيكة « لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » أى طريق واضح. وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال[1] (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) .

« وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ » يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامى .

« وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيّهم . كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

---

(١) [١١ / هود / ٨٩] .

(لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)[١] فلما عتوا وعقروها ، قال[٢] (تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٰتِيَةٌ ، فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ)

«وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ» أى من حوادث الدهر « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع. وفى سورة الأعراف[٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

« فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال لما جاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ» أى إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لا تقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] .
(٢) [١١ / هود / ٦٥] .
(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨].

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ » أى فيجزى كلًّا بما كانوا يعملون « فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله[1] (فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة. فإنه الخلّاق الذى لايعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرق فى سائر أقطار الأرض كقوله تعالى[2] (أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ) .

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ » قال الرازىّ : إنه تعالى لما صبّره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز .

(والسبع المثانى) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى[3] (كِتَـٰباً مُّتَشَـٰبِهاً مَّثَانِىَ) والواو فى قوله : (وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) لعطف الصفة كقول الشاعر[4] :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبة فى المُزْدَحَمْ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (المثانى) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز . أو مثن على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .
(٤) انظر معانى القرآن للفراء ، ج ١ ص ١٠٥ .
وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها ، لا أنها هى المعْنيَّة . كيف لاوهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث[1] (الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) عند الشيخين ، فمعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذى أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هولا غيره . وبداهة بطلانه لاتخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللأثرىّ الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هى الفاتحة لظاهر الحديث ـ أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ)

«لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ» يعنى: قدأوتيت النعمة العظمى،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١ ـ سورة الفاتحة ، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن المعلّى .

التى كل نعمة وإن عظمت ، فهى إليها حقيرة . وهى القرآن العظيم . فعليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيالها. فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفى التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى لعدم إيمانهم ، المرجوّ بسببه تقوّى ضعفاء المسلمين بهم « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أى المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أى مثل ماأنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ماأنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فالاقتسام من (القسم) لامن القسمة .

وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أى أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من التقسيم فنجازيهم عليه. وجوز تعلق (كَمَا) بقوله:

(لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ) أى لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما مَن تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإنزال عليهم إنزال الهداية التى أبَوْها ، وجوّز جعل الموصول مفعولاً أول للنذير ، أو لما دلّ عليه من أنذر . أى النذير . أو أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوّز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ) أى أنزلناه عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ)

[٩٦] (ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) . أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أى: افرق بين الحق والباطل «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» أى الذين يرومون صدك عن التبليغ، فلا تبال بهم « إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ » أى حَفِظْنَاكَ مِنْ شَرّهم ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ،له صلوات الله عليه، لينهض بالصدع نهضةَ من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى[1]: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ) .

---

(١) [٥ / المائدة / ٦٧] .

« ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » وصفهم بذلك، تسلية له عليه الصلاة والسلام، وتهوينا للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التى هى أكبر الكبائر ، التى سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوّز فى الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعا بتقدير (هم) . وفى الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم، كما روى ابن إسحق عن عروة: أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم : من بنى أسد أبو زمعة، كان النبىّ ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال: اللهم! أعم بصره وأثكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث. فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى[1]:(فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة ؛ إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله إلى جنبه . فمر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت فى أخمص قدمه . ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود[2] : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلى فى ظل الكعبة .

---

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٩ ـ باب إذا ألقى على ظهر المصلّى قذر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ ـ باب مالقى النبىّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً فى ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبى جهـــل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأميّة بن خلف وعقبة بن أبى معيط .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : فلقد رأيتهم قتلى فى قليب بدر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٩٩] (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون. لأن الجبلّة البشرية والمزاج الإنسانىّ يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى[١] : (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ـ) وقال[٢] : (أَلا بِذِكْرِ ٱللَّـهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) ومعلوم أن فى الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الربانىّ بالنصر والمعونة . لقوله[٣] : (إِنَّ ٱللَّـهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ). وقوله[٤]: (فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ) وقوله[٥] (إِنَّ ٱللَّـهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) .

---

(١) [٢ البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٨] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٥٣] و [٨ / الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٥٢].
(٥) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقدروى فى شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلا لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية . وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعنى الأمر بالتسبيح والحمد. والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن اللحوق بكل حىّ مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيذان بأنه متوجه إلى الحىّ طالب للوصول إليه. والمعنى دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا. كقوله تعالى فى سورة مريم[1] (وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ(اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن. إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدلّ له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ) وما فى الصحيح[3] عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك ، أبا السائب !فشهادتى عليك ، لقد أكرمك الله! فقال رسول الله ﷺ: ومايدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ! فمن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير .

---

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ ـ ٤٧] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ـ كتاب الجنائز، ٣ ـ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أُدرج فى كفنه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من إفراد البخارىّ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية الكريمة وهى قوله (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما فى صحيح البخارىّ[1] عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صلِّ قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً. فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ ـ باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخارىّ) .